

البحثري وشعره

أيها السادة:

البحثري وأبو تمام

حياة البحثري أوضح من حياة أبي تمام بعض الشيء، لأنها كانت أطول من حياة أبي تمام كثيرًا، فلم يكد أبو تمام يتجاوز الأربعين سنة. أما البحثري فقد عاش أكثر من ثمانين عامًا. ولم يرو الرواة عن تمام بن أبي تمام إلا خبرًا واحدًا عن أبيه لا قيمة له^(١). وأكثر ما نعرفه عن البحثري رواه ابنه أبو الغوث يحيى. ولم يعرف التاريخ عقبًا متصلًا لأبي تمام. ولكننا نعرف أن أبناء البحثري قد أعقبوا من بعده، وأن من أبنائه من كانت له الرياسة في ناحية حلب أيام المتنبى، وقد مدحه المتنبى فكل هذه الأشياء تجعل علمنا بحياة البحثري أوضح من علمنا بحياة أبي تمام.

كان البحثري محبوبًا، وكان أبو تمام محسدًا كثير الخصوم؛ ذلك لأن فن البحثري في الشعر كان قريبًا إلى نفوس الذين قرءوه. أما فن أبي تمام فكان غريبًا بعض الغرابة أو شديد الغرابة، فضاف به كثير من الناس، ونفرت أذواقهم العربية الخالصة من فنه هذا المعقد. الذي لا يخلو من إغراق والتواء.

أبو تمام يمتاز بأنه حتى في شعره الفني الخالص يتحدث إلى العقل، ويضطر الإنسان إلى أن يفكر، ويجد في التفكير ليقفهم المعاني ويلتئم بينها وبين ذوقه الخاص، أما البحثري فمطبوع ذهب في أغلب شعره مذهب القدماء، الذين جددوا المعاني، وحافظوا في الألفاظ والأساليب. فبينما كان أبو تمام يتصل بمسلم ويتأثره في البديع، وفي الملاءمة الموسيقية بين المعاني والألفاظ، ثم يزيد عنه تعمق المعاني والبحث عن غرائبها، كان البحثري مطبوعًا يتأثر أبا

(١) أنظر كتاب الأغاني لأبي الفرج.

نواس وغيره من الشعراء في العصر العباسي أولئك الذين كانوا يأخذون ألواناً من الاستعارة غذا عرضت لهم، ولا يتكلفون إلا تكلفاً يسيراً جداً.

مولده ونشأته

ولد البحتري في أوائل القرن الثالث الهجري سنة خمس أو ست ومائتين، ولما شب اتصل بأبي تمام، وكان أبو تمام في ذلك الوقت قد عرف واشتهر أمره، وكان له مجلس في حمص حينما كان يتصل بأهل حمص، فكان شعراء حمص يأتونه فينشدونه أشعارهم. وان البحتري من الذين أتوه وأنشدوه، سمع له أبو تمام وأعجب به وأظهر الرضا عنه، فلما أنصرف الشعراء استبقى البحتري وقال له: أنت أحسن من أشدني، فحدثني عن حالك. فشكا له البحتري فقراً وسوء حال، فكتب له أبو تمام كتاباً إلى أهل معرة النعمان ينبئهم أن هذا الرجل، أو هذا الشاب على حداثة سنه، نابغة بارع في الشعر، ويوصيهم به خيراً، فلما قرءوا الكتاب عنوا بالشاعر وجعلوا له مرتباً قدره أربعة آلاف درهم كل عام.

ومن ذلك اليوم أخذ البحتري يحس أنه خليف أن يرتفع بشعره إلى منزلة أرقى من المنزلة التي وصل إليها، والتي بقي لنا شيء من أخبارها. فيحدثنا بعض العلماء أنه رأى البحتري في منبج وهو يدخل المسجد من باب ويخرج من باب، ينشد الشعر في طريقه واقفاً على الحلقة، ثم يخرج من المسجد فيمدح باعة البصل والبادنجان. ثم ارتقى فمدح أمراء الولايات وقواد الجيش في العواصم، ثم انتقل إلى بغداد فاتصل بالخلفاء العباسيين: اتصل بالوائق والمتوكل ومن بعدهما، ومدح هؤلاء الخلفاء جميعاً، وهجا منهم اثنين. ومدح الذين كانوا يتصلون بالخلفاء من الوزراء والأمراء والقواد وهجا منهم أربعين.

مدحه وهجاؤه

كان إذا كثر المدح كثير الهجاء. لكن الرواة والنقاد الذين عاصروه والذين أتوا بعده متفقون على أنه كان ضعيف الحظ من الهجاء، وأن ابنه أبا الغوث لما رأى إجماع الناس على الغض من فن أبيه الهجائي أراد أن يدافع عن أبيه، فزعم أن الهجاء الجيد من شعر أبيه قد ذهب وضاع، وذلك أنه حين حضره الموت دعا ابنه وقال له: "إني قد هجوت كثيراً من الناس، فخرق هذا الهجاء فأني هجوت لأغيب من غاظني وقد شفيت غلتي، وانقضت الآن حاجتي من هذا الفن، وأنا منصرف عن هذه الدنيا، وللناس أعقاب يورثهم آباؤهم الخير والشر، فأنا أخاف عليك شر هذا الهجاء".

وعلى ذلك خرق أبو الغوث هجاء أبيه. ولكن صاحب الأغاني يقول: قد يكون هذا حقاً، ولكن هذا أيضاً لا يصنع شيئاً، فما بقي من هجاء البحتري لا يدل على أنه كان بارعاً في فن الهجاء.

موازنة بينه وبين أبي تمام

نعرف من أخبار البحتري شيئاً قليلاً، ولكنه يكفي لتشخيص حياته. أما من الناحية الشعرية، فقد استطاع بعضهم أن يفضلوه على أبي تمام. ويحدثنا صاحب الأغاني أن شيوخه كانوا يهتمون به الشعراء، وأول ما نلمح في شخصية البحتري أنه كان يحب الوفاء لأبي تمام خاصة، والذين اصطفوه وأحسنوا إليه بعد ذلك.

كان الناس في عصره يختلفون أيهما أشعر: أبو تمام أو البحتري؟ وسئل البحتري عن هذا عند ابن المعتز - وكان أبو العباس المبرد حاضراً في المجلس - فقال البحتري: أبو تمام هو الرئيس والأستاذ، والله ما أكلت الخبر إلا به، ولا ينفعني أن يقدمني الناس عليه ولا يضره ذلك، فقال أبو العباس: أبا الله يا ابا عبادة إلا أن تكون شريكاً من جميع جوانبك.

من وفاته

وشهد له النقاد أنه كان في هذا وفياً كريماً يعرف لأستاذه حقه عليه. ولا يغره إكبار الناس له وتقديم المتعصبين له على أبي تمام، وكان أيضاً وفياً للذين أحسنوا إليه، ولكن بشرط أن يكون هذا الإحسان قد اقترن بشيء من الحب والمودة؛ فالذين يحسنون إلى الشعراء يختلفون، فمنهم من أحسنوا إلى الشعراء لأنهم مدحهم وأثنوا عليهم، وهم يشترون المدح والثناء، وليس بين الشعراء وبين هؤلاء الناس إلا ما يكون بين المشتري والبائع. ومنهم من يحسنون إلى الشعراء لمودة وصداقة تصل بينهم وبين هؤلاء الشعراء، ولهذا كان البحتري وفياً لبعض الذين أحسنوا إليه، غادراً لبعضهم الآخر.

مدح محمد بن يوسف الطائي المعروف بأبي سعيد الثغري ومدح ابنه سعيداً، وأكثر من مدحهما والثناء عليهما، ثم قُتلا فرثاهما وأكثر من رثائهما. فكان رثاؤه لهما أجود من مدحه إياهما. وقد سئل البحتري عن ذلك فأجاب: إنما ينبغي أن يكون الرثاء أجود من المدح، لأن الرثاء هو صفة للوفاء، ولأن المدح الذي يبتغي به العطاء والمال يمكن أن يكون جيداً وممكن أن يكون رديئاً، لأنه صدر عن حاجة، وأما الرثاء فصادق اللهجة، يعبر عن هذا الوفاء وهذا الإخلاص.

وعلى عكس هذا سئل شاعر آخر كان يمدح قومًا فيجيد، ثم رثاهم فلم يبلغ في الإجابة في رثائهم ما بلغه في مدحهم. سئل في ذلك فقال: كنا نمدح للعطاء ونحن نرثي للوفاء، وينبغي أن يكون الرثاء شيئًا آخر. وهو بهذا يبرئ نفسه من الحق الثقيل.

وأنتم ترون الفرق بين هذين المذهبين: أحدهما يرى أن الوفاء ثقل يجب أن يتخفف منه الإنسان، والآخر يرى أن الوفاء دين يجب أن يؤدي بأحسن ما يؤدي الدين في صدق وإخلاص. وكان البحترى على ما يظهر من أتباع المذهب الأخير.

من أخلاقه

ولكن البحترى لم يقف عند هذا الخلق الذي نحمده، وإنما كانت له أخلاق أخرى يظهر أنها لا تستحق الثناء الكبير إن لم تستحق اللوم أو ما هو أكثر من اللوم. وربما كان مصدر هذا أن البحترى قد اتصل برجال السياسة ومدحهم فلقى منهم خيرًا، ولقي منهم شرًا أيضًا، فسخر منهم جميعًا وأنكرهم وازدراهم ومقت سلطانهم، واتخذهم وسيلة للثروة والغنى، ورأى أنهم لا يصلحون لأكثر من هذا.

هو والمتوكل

اتصال البحترى بالمتوكل فمدحه وأحسن مدحه، وربما كان أجود شعر البحترى ما قيل في مدح المتوكل. وقتل المتوكل والبحترى ينادمه فرثاه البحترى رثاء جميلًا، وفي هذه القصيدة يقول هذا البيت الخالد:

أكان ولّ العهد اضمر غدرة فمن عجب أن وليّ العهد غادره

ذلك أن المتوكل قُتل في مؤامرة خطيرة، اشترك فيها ولادة العهد فيما يظهر. هذه القصيدة التي رثي بها البحترى صديقه وسيده المتوكل، يظهر فيها وفاء شديدًا للمقتول، وسخطًا شديدًا على الذين قتلوه ومنهم ولي العهد.

هو والمنتصر والمستعين

ولكن لم يكد يتولى المنتصر حتى مدحه البحترى وأثنى عليه، وما دالت دولته حتى هجاه. وولي المستعين فمدحه وأكثر من مدحه، ولما خلع المستعين هجاه وأسرف في هجائه إسرافًا لا يحتمل من رجل كريم.

مع القواد والأمراء والوزراء

ثم لم يقف اضطراب البحترى عند الخلفاء، بل صنع مثل هذا مع القواد والأمراء والوزراء. ويحدثنا الرواة أنه هجا من هؤلاء أكثر من أربعين كان قد مدحهم جميعاً، وإنما هجاهم حين تنكرت لهم الأيام. مدح كاتباً من كتاب المستعين وهو شجاع، ثم لما غضب المستعين على شجاع وسجنه أسرف البحترى في الشماتة به، ودخل على المستعين وأنشده قصيدة يحرضه فيها على قتله و استصفاء أمواله.

وأقبح من هذا في أخلاق البحترى أنه مدح أكثر من عشرين رجلاً من كبار الأشراف في بغداد وغيرها في ذلك العصر، فلما تغيرت حالهم ودالت دولتهم نقل هذه المدائح عنهم إلى غيرهم، ومحا أسماءهم واثبت مكانها الأسماء الجديدة. فهو إذن لم يكن يتردد في بيع شعره كأقبح ما يبيع الشعراء أشعارهم.

أضف إلى هذا أن الدنس الخلقى لم يكن مقصوراً على طبيعته وخلقه، ولكنه اتخذ مظهره الخارجي مرآة له، والرواة يحدثوننا أنهم لم يعرفوا رجلاً كان أدنس ثوباً ولا أوسخ آلة من البحترى.

إعجابه بنفسه

وان على هذا شديد الإعجاب بنفسه، مفتونا بها فتنة لا تعرف، حتى كان إذا أنشد شعره بين يدي الخلفاء أنشده في شيء من التيه والعجب، يغيظ حتى الخلفاء أنفسهم.

كان إذا أنشد الشعر صنع كما كان يصنع رجل من قادة الديمقراطية في القرن الخامس في أثينا هو "ليون" فمشى عن يمين ومشى عن شمال وتقهر وتقدم، وحرك عنقه يميناً وشمالاً، ومال برأسه ألواناً من الممال، وحرك ذراعه ويديه، وهز كفه هزاً عنيفاً، والتفت إلى الناس وهو يقول: "ما لك لا تستحسنون؟" لا تقولون: أحسنت وأجدت؟".

ويقال أن أنشد ذات يوم قصيدته المشهورة التي يمدح فيها المتوكل والتي مطلعها:

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحننكم

فجعل ينشد ويضطرب هذه الألوان من الاضطراب، مائلاً إلى اليمين مرة وإلى الشمال مرة، حتى أغتاظ المتوكل وان إلى جانبه شاعر هو الصيمري فقال له: ألا ترى يا صيمري ما يفعل هذا الرجل؟ فبحياتي إلا غظته. فقال الصيمري: مز كاتبك أن يأتي ويكتب. وجاء الكاتب

فأملى عليه قصيدة طويلة تدونها في الموضح وتجدون بعضها في الأغاني - وأعتذر إليكم اني لا استطيع أن أنشدها لأنها في غاية القبحم - وأخذ الرجل ينشد هذه الأبيات حتى قطع على البحري إنشاده. فاستخذي واغتاط وولى مغضباً حتى خرج من القصر، والمتوكل يضحك ويصفق وأهل القصر من حلوه يضحكون ويصفقون. وذهب البحري بعد ذلك إلى أحد أصدقائه وقد ملكه حزن وغم شديد، واستشار صاحبه وقال: ما ترى في أن أرحل إلى بلدي بغير استئذان الخليفة؟ فقال له صاحبه: لا تفعل إن الملوك يمزحون بما هو أكثر من ذلك. ثم سار به إلى وكيل الخليفة الفتح بن خاقان فطمأنه وأشار عليه أن يبقى، وجد حتى عاد فقر به من المتوكل.

هذه القصة وأمثالها تبين لنا أن البحري، على ما لاحظنا من تذبذبه في السياسية واتخاذة الشعر وسيلة للعيش، كان مفتونا بنفسه شديد الإعجاب بها، وكان في الوقت نفسه ضعيفاً. فلو كان إعجابه يصدر عن إكبار في نفسه لاكتفى بما أصابه، ولما احتاج أن يستشير أو يتردد، ولأصبح فارتحل إلى مدينته في الشام وعاش بها، ولكنه كان لا يستطيع أن يرحل عن قصور الخلفاء، لأنه كان في حاجة متصلة إلى المال والثناء، والإعجاب والتقرب من الخلفاء.

منزلته في الشعر

ومع هذه العيوب في أخلاق البحري لا أعرف شعراً يخدع الناس عن صاحبه كشعر البحري. فالذين يقرءون شعر هذا الرجل يفتنون بأشياء مختلفة، يفتنون أولاً بجمال اللفظ، وربما كان البحري أظهر الشعراء الذين احتفظوا بجمال الديباجة العربية كأحسن ما يحتفظ الشاعر بجمال هذه الديباجة في القرن الثالث الهجري. ولم يخطئ شيوخ صاحب الأغاني حين ختموا به الشعراء، لأن هؤلاء الناس كانوا من الأدباء المحافظين في الأدب. فكما كان أبو عمرو بن العلاء يختم الشعراء بجرير، كان هؤلاء الناس يختمون الشعراء بالبحري، والواقع أن ما كان يمتاز به جرير كان يمتاز به البحري في القرن الثالث الهجري.

ثم نعجب من البحري لأنه كان في أكثر شعره مطبوعاً يرسل نفسه على سجيتها، لا يتعمق ولا يتكلف، وقد لا يروق شعره المتعمقين الذين يلتمسون اللذة الفنية بعد الجهد، ولكن هؤلاء المثقفين الذين يحبون الجهد والعناء قليلون، فإذا كان لا يعجبهم البحري فقد كان يعجب غيرهم من جمهور الناس، كانوا يلتمسون عنده اللذة المريحة، ذلك أنه كان لا يصنع صنيع ابى تمام في الغوص وتكلف الاستعارات النادرة، وإنما كان يرسل نفسه على سجيتها إرسالاً، ويعبر عن عواطفه كما يعبر الناس جميعاً حين يحبون أو يبغضون. فليس غريباً أن يجد كل إنسان من معاصرين مرآة لهذه العواطف التي شعر بها في حياته، وفيما يختلف عليها من ظروف.

له في مدح المتوكل

ويكفي أن تسمعوا لهذه القصيدة التي يمدح بها مولاه المتوكل لتروا أن الذين كانوا يحبونه ويفتنون به كانوا معذورين بعض الشيء في هذا الحب والإعجاب؟ ولتروا لونا من ألوان هذا الفن العربي الذي اختص به البحري في القرن الثالث الهجري. هذه القصيدة كثر قصائد البحري تنقسم إلى قسمين، أحدهما غزل يتخذه وسيلة إلى المدح كأنه يهيئ به نفسه لهذه المعاني التي يقصدها في المح، وهو يهيئ به الخليفة والذين يسمعون من حوله.

لي حبيبٌ قد لج في الهجر جدًا	وأعاد الصّدود منه وأبدي
ذو فنون يريك في كلي يوم	خلقًا من جفائه مستجدًا
يتأبى منعًا، وينعم إسعافًا	ويدنو وصلا، ويبعد صدا
أغتدى راشيًّا، وقد بت غضبا	ن، وأمسي مولى، وأصبح عبدا
وبنفسى أفدي على كل حال	شادنا لو يمس بالحسن أعدى
مر بي خاليًّا فأطمع في الوصد	ل وعرضتُ بالسلام فرّدا
وتشى خده إلى على خو	ف فقبلتُ جانبا ردا
سيد أنت، ما تعرضت ظمًا	فأجازى به، ولا خنت عهدا
رق لي من مدامع ليس تزقا	وارث لي من جوانح ليس تهدا
أتراني مستبدلا بك م اعش	تُ بديلا، أو واجدا منك ندا
حاش الله أنت أفنتن ألحا	ظًا وأحلى شكلا وأحسن قدا

ثم ينتقل إلى المدح كما هي عادته من غير تخلص فيقول:

خلق الله جعفرًا قيم الدنيا	يا سدادًا، وقيم الدين رُشدا
أكرم الله شيمه وأتم النا	س خلقًا وأكثر الناس رفدا
ملك حصنت عزمته الأمل	ك فأضحت له مغاثرًا وردا

أظهر العدلَ فاستتارت به الأرض
وحكى القطر، بل أبرَّ على القطْ
ض وعمَّ البلادَ غورًا ونجدات
ر بكف على البرية تندي
هو حر السماع والجود فازدد
منه قريبًا تزدد من الفقر بعدا
وجمال الدنيا ثناء ومجدا
يا ثمال الدنيا عطاء وبذلا
وشبيهه النبيَّ خلقًا وخلقا
وسنيب النبيَّ جدًّا فجدا
دي على دهرنا المسيء فنغدى
بك نستعتب الليالي ونستعد
فابقَ عمرَ الزمان حتى نوذى
شكر إحسانك الذي لا يؤدى

فأنتم ترون في هذا الغزل وفي هذا المدح لفظًا كأسهل ما يكون اللفظ الشعري وكأحسنه
اختيارًا وأجوده انتقال.

ولكنكم على ذلك لا ترون تكلفًا للبديع، ولا تعمقًا في الاستعارة، ولا إغراقًا في هذه
المحسنات اللفظية. وإن رأيتم شيئًا فهو تكلف لطيف يخلب الأذن ويعجب السمع ويستهيوي
النفس.

هذا التقسيم بنوع خاص في هذا البيت:

يتأبى منعًا، وينعم إسعًا فآ، ويدنو وصلًا، ويبعد صدا

إذا أردتم تحليل هذا البيت فلن تجدوا فيه شيئًا. فهو يقول إن حبيبه يتأبى أحيانًا ويصل
أحيانًا، وهو معني شائع، ولكن الجمال لا يأتي من المعنى وإنما يأتي من هذا التقسيم. فهو قد
أتى بأفعال أربعة، وعلل كل فعل بمصدر من المصادر فقال:

يتأبى منعًا، وينعم إسعًا فآ، ويدنو وصلًا، ويبعد صدا

هذه الأفعال التي يلي بعضها بعضًا ولا يفصل بينها إلا المصادر، هي التي تحدث شيئًا
من النغم والموسيقى فتصرف عقولنا عهن أن نفكر فيما وراء هذه الأفعال ويخيل إلينا أن في
البيت شيئًا كثيرًا مع أن البيت لا شيء فيه.

والبيت الآخر:

أغتدي راضيًا، وقد بت غضبا ن، وأمسي مولى وأصبح عبدا

أي شيء في هذا البيت أكثر من أنه يلائم البيت الذي سبقه، فإذا أنعم إسعافاً ودنا
وصلا فالبحثري راضي، وإذا تأبى وصد فالبحثري غضبان أو خزين. وليس في البيت أكثر من
هذا. ولكن أنظروا إلى هذا التقسيم، وهذه الموسيقى من هذه الأفعال التي لا يفصلها سوى هذه
الصفات: "أغتدي راضيًا وقد بت غضبان... البيت" ولاحظوا أن هذه الأفعال تعجبنا لأنها تقسيم
الوقت، فهو في الغدوة راض، وقد كان في الليل غضبان، وهو في أول النهار عبد، وفي آخره
مولى.

الواقع أنكم عندما تقرأون شعر البحتري في مدح المتوكل، فلن تجدوا معنى نادراً مطلقاً،
ولا معنى واحداً مبتكراً؛ بل هي معان مألوفة أسرف فيها الشعراء حين مدحوا. فأنتم مضطرون
إلى أن تعجبوا به لا لسبب، إلا أن الشاعر أجاد انتقاء اللفظ، فانظروا إلى قوله:

خلق الله جعفرًا قيم الدنيا يا سدادًا، وقيم الدين رشدا

أكرم الناس شيمةً، وأتم النا س خلقًا، وأكثر الناس رفدا

فهو لا يزيد عن أن يقول: إن المتوكل أكرم الناس شيمة، وأتمهم حسنًا وخلقًا، وأكثرهم
عطاء. وأي خليفة بل أي ملك مدحه الشعراء ولم يصفوه بهذا؟ بل أي إنسان مدح بال من
هذا؟ وإنما هذا التقسيم نفسه هو الذي يبعث في نفوسنا هذا الإعجاب.

قصيدة أخرى له في مدح المتوكل

انظروا إلى قصيدة أخرى تشبه هذه القصيدة. وهي في مدح المتوكل. فسترون فيها شيئاً
جديداً، وهو متانة اللفظ إلى جانب الجمالي الفني، وستجدون جزالة ومتانة لا تجدونها في
القصيدة السابقة، وهي تأتي أولاً من هذه القافية، فقد اختار الضاد، وهي أضخم حرف في اللغة
العربية، ولأمر ما سميت العربية لغة الضاد:

أيها العاتبُ ليس يرضى نم هنيئًا فلستُ أطعم غمضا

إن لي من هواك وجدًا قد استه لك نومي، ومضجعًا قد أقضا

فجفوني في عبرة ليس تُرَف وفؤادي في لوعة ما تقضي

دك وعدًا إنجازهُ ليس يُقضى.

وأثبني بالحب إن كان قرُضا

بجفون فواتر اللحظة مرَضَى

منه بعضًا وأكتم الناس بعضًا

يَنْتَهَى تَنْتَهَى الغصن غَضَا

ليّ عن بعض ما أتيت وأغضى

لَا وَلَثَمًا طُورًا وَشَمًّا وَعَضَا

يا قليلَ الإنصاف كم أقتضي عند

فأجزني بالوصل إن كان أجرًا

بأبي شادن تعلق قلبي

عزني حبه فأصبت أبدي

لست أناسه بادياً من قريب

واعتذاري إليه حتى تجافى

واعتلاقي ثقاح خديته تقييـ

ثم ينتقل إلى المدح مرة واحدة فيقول:

د فأبلى كوم المطايا وأنضى

يسع الراغبين طُولاً وعرضاً

جزيل العطاء والجود محضاً

وقعات من الحسام وأمضى

مَّا صلاحُ الإسلام فيه ونقضا

ويطيع الإله بسطاً وقبضاً

ب وكان المقام بالقوم دحضا (١)

أيها الراغب الذي طلب الجو

رد حياض الإمام تلق نوالاً

فهناك العطاء جزلاً لمن رام

هو أندى من الغمام وأوفى

دبر الملك بالسداد فأبرا

يتوخى الإحسان قولاً وفعلاً

وإذا ما تشنعت حوله الحر

(١) دحضا: أي زقاً.

ورأيت الجياد تحت مثار الـ نقع ينهضن بالفوارس نهضا
عشى الذراعين ضربا هذانيـ ك وطعنا يُودع الخيل وَخَصَا (١)
يا بن عم النبي حقا ويا أز كى فُريش نفسًا وديئًا وعرضًا
بنت بالفضل والعوِّ فأصـ بحت سماء، وأصبح الناس أرضًا
وأرى المجد ين عارفةٍ منـ ك تُرجى، وعزمه منك تُمضى

ماذا يعجبنا من هذه القصيدة؟ إذا التمسنا المعاني التي نلتمسها عند أبي تمام لم نجد شيئاً يذكر، فليست هناك معان قيمة تضطرك أن تقف عندها وأن تفكر فيها وتعجب بها، وأن تقول إن البحتري قد اخترعها. جاء هذا الجمال من أمرين ظاهرين، أولهما هذه المتانة التي استطاع البحتري أن يجعلها في الألفاظ. فهذه الألفاظ تملأ الفم وتقرع الأذن، ولكنها تملأ الفم دون أن يضيق بها الفم، وتقرع السمع دون أن تؤذيه. فهي جزلة رقيقة في وقت واحد، لا غرابة في فظ ولا شذوذ ولا استغراب.

والمصدر الثاني لهذا الجمال ما عني به البحتري بنوع من أنواع البديع، وهو المقابلة بين نوم الحبيب وبين سهده هو، وما يشبه ذلك في القصيدة كلها.

وعلى هذا النحو عندما تحللون هذه الأبيات تجدون جمالا يرجع إلى حسن اختيار الألفاظ، وإلى الملاءمة فيها بين الرقة والجزالة والمتانة. أما المعاني فهي عادية مألوفة يحسها كل واحد أحس الحب، وكل واحد رغب في القرب من الخلفاء والملوك. فمن يحس الحب فلن يتحدث بأقل من أنه يسهر طول الليل ولا ينام، ومن أن الهوى قد استهلك نومه، وأقضى مضجعه، ومن أن هذا الحبيب لا ينصف، ومن أن الحبيب شادن جميل، وأن العاشق ألح في الطلب ثم أمكنته فرصة من هذه الفرص السعيدة، التي يظفر بها العاشق أحيانا، فأخذ يقبل تفاح الخدين ويشمه ويعضه.

(١) هذانيك: أي قطع بعد قطع. والوخض: الطعن غير المبالغ فيه.

فإذا ما أراد المدح فيم يمدحه إلا بأنه كريم جواد، شجاع لا حدّ لشجاعته، عدل لا حد
لعدله، قد أظهر الإسلام وأعزه؟

ثم إذا مدح خليفة من بني العباس لم يكن بدّ من أن يمدحه بقربه من النبي، ولكن اللفظ
هو مصدر هذا الجمال.

ثالثة في مدح المتوكل أيضًا

أنظر إلى قصيدة أخرى جاء جمالها من اللفظ والوزن، والبحتري من الذين ذهبوا مذهب
أبي نواس وشعراء القرن الثاني من اختيار هذه الأوزان الخفيفة، ولعله إنما اختار هذه الأوزان
وشغف بها، لأنه أراد أن يكون شعره ملائمًا لهذه البيئة السهلة المترفة، التي كانت تعيش في
قصور الخلفاء والأمراء، هؤلاء الناس الذين كانوا متى فرغوا من أعمال الدولة التفتوا إلى لهو
يسير، لا كلفة فيه ولا شمقة:

سـيـلٌ وصالٌ فلم يجـدْ	مُخلفٌ في الذي وَعَدْ
دَّ وبالـدَّ دلّ منفـرد	وهو بالحسن مسـتـب
ب، ويفتـر عن بـرد	يـتـنـي على قضـيـر
مـن هـواه فلم أجـد	وقـد تـطـلـبـت مـخـرـجـا
عـنـك صـبـرٌ ولا جـلـد	بـأبي أنـت لـيس ل
ن وقلـبـي بـما وـجـد	ضـاق صـدري بـما أجـد
تُ جـوى الحـب والـكـمـد	وتغـضـب إن شـكو
بُ فـإن تـعـف لا أعـد	واشـتـكـائي هـواك ذنـد

ثم يثب إلى المدح. والمدح هنا له ظرف خاص، فهو يريد أن يمدح الخليفة ويشجعه، لأن المتوكل كان قد ضاق بجوار الموالى من الفرس والترك، وود لو يستطيع أن يعيش بين العرب في الشام:

ق وعـن فُطبها النكد	قد رحلنا عن العرا
قَ إذا ليلها بـرد	حبذا العيش في دمشق
ن ويُسْتَحْسَن البالد	حيث يُسْتَقْبَل الزما
و أيامه الجدد	سفر جددت لنا الله
فيه على الرشدد	عزم الله للخليفة
ة عن حل ما عقد	ملك تعجز البريد
تباط للدين واجتهدد	يا إمام الهدى الذي أحـ
صُحبه الواحد الصمد	سر بسعد السعد في
لو لنا آخر الأبد	وابق في العز والعـ

فماذا تجدون ففي هذه القصيدة من المعاني الغريبة؟ لا شيء إلا هذه العاطفة الحلوة التي يحب البحثري أن يظهرها حين يمدح الخليفة، وهي عاطفة الرجل الذي يرى أن الخليفة يريد أن ينتقل إلى بلاده، ويحس أنه يريد أن يقيم في هذه البلاد التي يحبها ويألفها، نحس هذه العاطفة دون أن يصرح بها في قوله:

ق وعـن فُطبها النكد	قد رحلنا عن العرا
قَ إذا ليلها بـرد	حبذا العيش في دمشق

نحس من هذا حنينًا من البحترى إلى بلاده، فقد كان البحترى سوريًا حقًا ولد ونشأ في سوريا، وأظهر في شعره حبه لها.

لون آخر في شعره في مدح المتوكل

أكان شعر البحترى كله كهذا الشعر يخدم بالألفاظ وجمالها وحسن اختيارها وبعض هذه الأنواع البديعية اللفظية؟ أم كان للبحترى شعر آخر لا يخلو من تعمق يؤثر في النفوس لأنه لا يمس نفس البحترى وحده، بل هو يمس النفس الإنسانية في جميع العصور، وفي جميع الظروف التي قال البحترى فيها هذا الشعر؟

الواقع أيها السادة أن شعر البحترى إن كان قد غلب عليه الجمالي اللفظي الخداع، وهذه المعاني التي يحسها الناس في غير مشقة ولا كلفة. والتي لا بقاء لها ولا ثبات، فقد وفق البحترى على شعر آخر، تتغير العصور والظروف وهو باق خالد لأنه يصور خلاصة الحياة. وأريد أن اضرب مثلا من هذا الشعر قصيدة مدح بها المتوكل وأثنى عليه بمناسبة، وهي أن قبيلة من قبائل العرب في الجزيرة هي قبيلة تغلب اختصمت وثارَت بينها حرب تشبه هذه الحروب التي كانت بين العرب في الجاهلية. ثارت هذه الخصومة فكادت قبيلة تغلب يفنى بعضها بعضًا، حتى عني المتوكل بهذه الحروب، وكلف وزيره الفتح بن خافقان أن يصلح بين المتحاربين، وأعاد الأمر إلى ما كان عليه. فإذا قرأنا هذه القصيدة أعجبنا بها. وسترون في هذه القصيدة أن البحترى لاعم بين الجزالة العربية وبين البديع كما أنه عني فيها بأن تكون وحدة مرتبة ترتيبًا منطقيًا معقولًا لا مضطربة، ولا يستطيع القارئ أن يثبت بين أجزائها، ولكنه مضطر أن يقرأ أجزاءها متوالية، فينتقل من الجزء الأول إلى الذي يليه ثم إلى الثالث وهكذا.

وفي الجزء الأول من هذه القصيدة التي أراد فيها البحترى أن يكون أعرابيًا ومجدًا في وقت واحد، الجزء الأول فيه غزل غير متكلف من جهة المعنى ولكن يظهر فيها التكلف اللفظي بعض الشيء، أما المطلع فليس بذى قيمة، أما الأبيات التي تليه فهي قيمة:

مُنِي النَّفْسُ فِي أَسْمَاءَ لَوْ يَسْتَطِيعُهَا بِهَا وَجَدُهَا مِنْ غَادَةٍ وَوَلَوْعُهَا

تجدون في هذا البيت غموضًا وشيئًا من الغرابة، والواقع أنه عند ما نفسره لا نجد وراء شيئًا.

وَقَدْ رَاعَنِي مِنْهَا لَصَدُودٌ وَإِنَّمَا تَصُدُّ لَشَيْبٍ فِي عَذَارَى يَرُوعُهَا

لا يعجبنا معنا، ولكنّ الذي يُعجبنا هو اللفظ في فعل "راع" في أول البيت ثم "يروع" في آخره.

حملتُ هواها يوم منعرج اللّوى على كبدٍ قد أوهنتها صدوعها

ثم ينتقل على طريقة الأعراب إلى ذكر الناقة والطريق التي يسلكها:

وكنت تبيع الغانيات فإنما يذم وفاء الغانيات تبيعها

وحسناً لم تحسن صنيعاً وربما صبوتُ إلى حسناء سيء صنيعها

عجبت لها تبدي القلى وأودها وللنفس تعصيني هوى وأطيعها

تشكي الوجى والليل ملتبس الدجى غريرة الأنساب مرتٌ ببيعها (١)

في هذا البيت غرابة لفظية، ولكنكم تحسون موسيقى في الشطر الأول منه. ثم يقول:

ولست بزوار الملوك على الوجى لئن لم تجل أغراضها ونسوعها (٢)

تؤم القصور البييض من أرض بابل بحيثُ تلاقى غربها وبديعها

إذا أشرف البرج المطلُ رمينه بإبصار خوص قد أرثت قطوعها

- والبرج: قصر من صور المتوكل في سر! من رأى -

يضيء لها قصد السرى لمعانه إذا أسود من ظلماء ليل هزيعها

(١) الوجى: الحفي. وغربية: نسبة إلى غرير، فحل من الإبل. ومرت: لا نبات فيها.

(٢) الأغراض: جمع غرض، وهو للرحل كالحزم للسرّج. والنسوع: جمع نسع، وهو حبل من آدم ينسج عرضُ تشد به الرحال.

إلى هنا تغزل البحترى مقتصدًا، ووصف الطريق والغاية مقتصدًا، لأنه يريد أن يصل إلى المدح إذ يقول:

تُزور أمير المؤمنين ودونه سُهوب البلاد رَحْبها ووسيعها

إذا ما هبطنا بلدة كَرَّ أهلها أحاديث إحسان نداء يُذيعها

حمى حوزة الإسلام فارتدع العدى وقد علموا أن لن يُرام منيعها

ولما رعى سُرْب الرعية زادها عن الجذب مخر التلاع مريعها

ونلاحظ هنا أنه تعمد عيبًا من هذه العيوب التي يحبها الشعراء وهو الزحاف وكان يجب أن يقول "البلادي" بالمد لكي يستقيم الوزن. إلى أن يقول:

علمتُ يقينًا مُذ توكل جعفر على الله فيها أنه لا يضيعها

أنظروا هذا التكلف، وهو تكلف لا شك من أضعف تكلفات المولدين، إذ تعمد أن يذكر اسم الخليفة كاملاً وهو "جعفر المتوكل على الله". وهو يظن أن في هذا النوع من التعبير شيئاً من الظرف، ومن غير شك قد كان ظنه صادقاً، وليس من شك أن الذين سمعوه قد أحسوا بهذا الظرف، أما أنا فلست أرى فيه شيئاً من هذا الظرف، ولست أدري أيوافق القراء والنقاد على هذا أم يخالفونني.. ثم يقول:

جلا الشكَّ عن أبصارنا بخلافة نفى الظلم عنا والظلام صديعها (١)

هي الشمسُ أبدي رونق الحق نورها وأشرق في سرِّ القلوب طلوعها

أما الإجادة الفنية فتبتدئ من البيت الآتي:

أسيتُ لخالٍ ربيعة إذ عفتُ مصايفها منها وأقوت رُوعها

(١) صديعها: صباحها.

بُكرهي أن باتت خلاءً ديارها ووحشًا مغانيها وشتى جُموعها

وأمتت تساقى الموت من بعدما غدت شروبًا تساقى الراح رفهاً شروعها (١)

أيضًا، ويأبى الذين أخذ منهم بالثأر إلا أن يثأروا لأنفسهم ثانيًا. وهكذا كما نرى في قوله:

إذا افترقوا عن وقعة جمعتهم لأخرى دماء ما يطل نجيعها (٢)

تدم الفتاة الرود شيمةً بعها إذ بات دون الثأر وهو ضجيعها

حمية شعب جاهلي وعزة كليية أعيال الرجال خضوعها

وفرسان هيجاء تجيش صدورها بأحقادها حتى تضيق ذروعها

ثم انظروا مع هذا المعنى إلى هذه الألفاظ المختارة، ألفاظ في غاية المتانة محببة إلى النفس، انظروا إلى هذا البيت:

تقتل من وتر أعز نفوسها عليها بايدي ما تكاد تطيعها

بهذا البيت جمع البحثري أرقى ما يمن أن يشعر به البدوي في هذا الظرف، وما عند العربي من طبيعة؛ فهم يقتلون النفوس، ولكنهم بعد هذا كله وفوق هذا كله من الناس يحسون عواطف المودة والقربى، وهم أيضًا يحسون الثأر لشرف والرقعة لعاطفة القربى. ثم انظروا إلى هذين البيتين اللذين استطاع البحثري أن يثبت بهما أن فن البديع أو أنواعه، إذا استطاع الشاعر أن يحسن استخدامها كانت مصدر جمال قوي رائع.

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

(١) الرفة: أن تزد الإبل الماء كل يوم متى شاعت، والشرع: الإبل الداخلة في الماء.

(٢) يطل: يهدر. والنجيع: الدم يضرب إلى السواد.

شَواجرُ أرمَاحٍ تُقَطِّعُ بَينَهُم شَواجرُ أرحامٍ مَلُومٍ قُطِيعُها

أنظروا إلى هذه الأبيات. ماذا تجدون فيها؟ دعوا ما في الألفاظ من الجمال الفني الخالص وقفوا عند المعاني، فستجدون أن البحثري قد تجاوز العصر الذي كان يعيش فيه، وعبر عن معانٍ إنسانية رائعة يحسها الناس في كل وقت، وفي جميع الظروف.

بعد هذا ينتقل البحثري إلى الجزء الأخير وهو الثناء على المتوكل، لأنه استطاع أن يصلح بينهم:

فلولا أُميرُ المؤمنين وطولُه لعادت جيوبُ والدماءُ رُدُّوعها

ولا صَطَلتْ جِرثومةٌ تغليبةُ به استبقيت أغصانها وفروعها

رفعت بضبعي تغلب ابنة وائل وقد يئست أن يستقل صريعها

وكنت أمينَ الله مولى حياتها ومولات فتح يومَ ذاك شفيعها

لعمري لقد شرفته بصنيعة إليه ونعمي ظل فيهم يشيعها

تألفهم من بعد ما شردت بهم حفائظُ أخلاق بطيئٍ رجوعها

فأبصر غاويها المحجةً فاهتدى وأقصر غاليتها ودواني شسوعها

أنظروا إلى لفظة "شسوع" هنا، وقد أراد البحثري أن يكون بدويًا فجاء بالسین بعد الشين فلم يعجبني:

وأَمْضَى قضاءً بينها فتحاجرت ومفحوضها راض به وزفيعها

فقد رُكزت سمر الرمام وأغمدت رفاقَ الطبّا مجفوها وصنيعها

فقرت قلوب" كان جما وجيبها ونات عيونٌ كان نزرًا هجوعها

وأعدّها عاكرهتُ نُزوعها	أنتك وقد ثابتٌ إليها حلومها
سبائبُ روض الحزن جاد ربيعها	تُعيد وتبدي من ثناء كأنه
أتى الذنبُ عاصيها فليم مطيعها	تصد حياء أن تراك باعين
يسفه في شر جناه خليعها	ولا عُذر إلا أن حلم حلِيمها
على تغلب حتى استمر ظليعها	بقيت فكم ابقيت بالعفو محسنًا
لأول هيجاء تلاقى جموعها	مشفقة تخشى حمامًا على ابنها
ففر حشاها واطمأنت ضلوعها	ربطت بصلح القوم نافر جأشها

في هذه القصيدة تجدون فنونًا من الجمال، تجدون أولاً هذه الأعرابية الواضحة التي فيها شيء من الجفوة، ولكنها جفوة نحبها ونستعذبها، لأنها تصور لنا حياة الصحراء وما فيها من شعور بهذه الغلظة الساذجة التي تلائم الطبيعة وقد ضقنا ذرعًا بالحياة الحضرية. ثم تجدون فيها هذه الألفاظ الضخمة التي لم يرقّ منها لفظ رقة تجعله شديد السهولة في السمع، وإنما هي الرقة التي تحببه إلى النفس، وإلى جانب هذه الرقة الجزالة التي ترفعه عن الابتذال. ثم هذه الطريقة التي سلكها في هذه الأبيات:

وقد راعني منها الصّدود وإنما	نصد لشيب في عذاري يروعها
وكنتُ تبيع الغانيات فإنما	يذم وفاء الغانيات تبيعها
وحسنا لم تُحسن صنيعًا وربما	صبوتُ إلى حسناء سيء صنيعها

هذا النوع من الترشيح للقافية في الشطر الأول يعجبنا أيضًا؛ لأنه يثير في نفوسنا شيئًا من الموسيقى والجمال. ثم هذه المطابقات والمقابلات التي سردها، في بساطة وبسر من غير أن

يكلف نفسه مشقة، أو أن يكلفك مشقة. وبالطريقة التي يخيل إليك بها أن هذا الشعر أيسر ما يمكن، فإذا عمدت إليه وجدت تقليده عسيرًا.

فأنتم ترون أن شعر البحتري ليس هو بهذا الشعر الذي يمكن أن يقال فيه غنه مطبوع سهل من جميع وجوهه. كما أنه ليس من السهل أن يقال فيه غنه شعر سهل يسير. وإنما أخص ما يمتاز به هذا الشعر أنه مطبوع في أكثره، وقد تظهر فيه نضعة حلوة في كثير من المواضع. ولكن البحتري قد يحتذي حذو أستاذه أبي تمام ويمعن في تقليده، لا من ناحية اللغة العربية وآدابها فحسب، بل من النواحي العلمية والفلسفية التي كانت شائعة في هذا العصر، والتي كان حظ أبي تمام منها عظيمًا، والتي يظهر أن البحتري كان مقتصدًا فيها. فإذا عمد البحتري إلى تقليد أستاذه أبي تمام تورط في ألوان من السخف، وفي ألوان من الرداءة.

لم تُختم حياة البحتري ختامًا حسنًا، فقد رثي بعض أصدقائه بأبيات انتهزها أعداؤه فرصة فشنعوا عليه واتهموه بالزندقة، لأنه يصف الدنيا فيقول: إن الذي يتأمل الدنيا يراها وإن كانت من صنع صانع واحد، يخيل إليه أن ما فيها خلق حكيم وخلق أخرق. والرجل معترف قبل هذا أن الدنيا إنما هي من خلق خالق واحد، وهذه الأبيات هي:

أخي متى خاصمت نفسك فاحتشد	لها، ومتى حدثت نفسك فاصدق
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى الت	جمع إلا عللة للتفرق
أرى العيش ظلاً توشك الشمس نقله	فكس في ابتغاء العيش كيسك أومق
أرى الدهر غولاً للنفوس وإنما	يقي الله في بع المواطن من يقي
ولم أر كالدنيا حليلاً وامق	محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عياناً وهي صنعة واحد	فتحسبها صنعي حكيم وأخرق

شاعت هذه الأبيات وشنع عليه بها أعداؤه، وقالوا يذهب مذهب الفرس الذين يدينون بالهين، غله للخير وإله للشر. وإن سلطان العامة قد عظم، فأشفق البحتري على نفسه وقال

لابنه: هلم بنا يا بني نخرج خرجة من بغداد إلى بلدنا، نقيم فيه حيناً ثم نعود إلى بغداد. وخرج مع ابنه إلى مَنبج بالشام، ولكنه لم يعد فقد مات بمنبج، وقد نيف على الثمانين.

خاتمة

حياة البحتري المفصلة مجهولة أو كالمجهولة، ولكن شرعه مهما يكن أمره، ومع أنني لا أتردد ولا أحتاط في أن أقدم عليه شعر أبي تمام، بل لا أتردد ولا أحتاط في أن أقدم أبا تمام على معاصريه جميعاً.

مع هذا كله، فشعر البحتري من أجمل ما ترك لنا الأدب العربي العباسي، كل ما أتمناه أن أكون داعياً لكثير من الذين لم يتعودوا قراءة الشعر العربي القديم، يقرءوه، وأنا أعدهم بأنهم سيجدون فيه لذة لا تعدلها لذة.